أولا: جذور التسلط

١- التصور الرأسى للعالم وجذور التسلط.

٢- التصور الهرمى للعالم وجذور البيروقراطية.

٣- التصور الثنائى للعالم وجذور الكبت.

٤- التصور الأحادى للعالم وجذور القهر.

٥- من القمة إلى القاعدة.

٦- فقهاء السلطان الأكبر.

٧- لعب الأطفال على طريقة الكبار.

obeikan.com

obeikan.com

١ - التصور الرأسى للعالم وجذور التسلط (*)

إذا كان المدخل للصحوة الثانية فى الوطن العربى هو المدخل الثقافى، و إعادة بناء الموروث القديم طبقًا لتحديات العصر، فإن أول ما يحتاج العرب إليه فى إعادة بناء ثقافاتهم هو التحول من التصور الرأسى للعالم إلى التصور الأفقى، من أجل المساهمة فى حل قضية التسلط فى حياتنا العامة السياسية والاقتصادية والإدارية والثقافية عن طريق نزع جذوره فى الثقافة الوطنية. فقد ورثنا تصورًا رأسيًا للعالم، يتصور العلاقة بين الطرفين علاقة الأعلى بالأدنى. ولما كان الأعلى أكثر قيمة من الأدنى وأعلى رتبة وشرفًا، فعلى الأدنى طاعة الأعلى، وعلى الأعلى أمر الأدنى. الأعلى هو الأكثر علمًا، إلهامًا أو كسبًا، والأدنى أقل علمًا ولا إلهام له، وتحصيله محدود بالمهنة والحرفة. الأعلى معصوم من الخطإ، على صواب مطلق، فى حين أن الأدنى يخطئ ويحتاج إلى الهداية والرشاد. الأعلى مهمته النظر والتفكير والتخطيط والقرار. والأدنى مهمته العمل والتنفيذ والتحقيق والإجراء. والياقة البيضاء بتعبير الاجتماعيين أعلى قيمة وفضلاً من الياقة الزرقاء. الأعلى بالطبيعة والكسب، بالهبة والتعليم، بالاختيار الإلهى، الفورى أو التاريخى. والأدنى أيضًا فرضته الطبيعة، فكل ميسر لما خلق له. ومنذ خلقت الدنيا، الناس إمام ومأموم، آمر ومأمور، قائد ومقود. نموذجهما علاقة الله بالعالم كما تصورها المتكلمون، وعلاقة النفس بالبدن كما تصورها الفلاسفة، وعلاقة النص بالواقع كما تصورها علماء أصول الفقه. وقد عبر الفارابى عن ذلك فى المدينة الفاضلة، عندما جعل الرئيس أعلى من المرءوس، والإمام أعلى من المأموم. لا فرق بين الإمام والرئيس والملك والفيلسوف، أكمل البشر وكامل الأوصاف، وما دونه النقص والمراتب الدنيا.

(*) جريدة الاتحاد: ٢ مارس ٢٠٠٢م.

وقد استمر هذا التصور الموروث فى الدين الشعبى كما تمارسه العامة. ترفع بكفيها إلى السماء. تطلب العون والمغفرة، وتستدعى الرزق والبركة. تبتهل وتتضرع، تبكى وتتحسر. السماء أرحب من الأرض. منها ينزل الغيث، ويهبط المطر. منها يصدر نور الشمس وضياء القمر. وفى الأرض عتمة وظلام. النزول أسهل من الصعود، والكرم أفضل من البخل، واليد العليا خير من اليد السفلى. والعلو أفضل من السفل، والتعالى أرفع من التدانى. هو «سى السيد» الذى صوره نجيب محفوظ فى ثلاثيته المشهورة، و«المجتمع الأبوى» أو «البطريركى» الذى وصفه علماء الاجتماع المحدثون. وهى العادات الشعبية التى تدعو إلى احترام الصغير الكبير، وأولوية الشيخ على الصبى، والجد على الأب، والأب على الابن. هى جزء من قيم القرية، ومتطلبات الأصالة، والحفاظ على التقاليد. بل إنه وضع طبيعى كونى، علاقة السبب بالمسبب، والعلة بالمعلول، والتابع بالمتبوع. وهى علاقة يقبلها العقل ويؤيدها المنطق، علاقة المقدمة بالنتيجة، والكل بالجزء، والصورة بالمادة. وقد روى القدماء «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية». والناس تنهل من الدين الشعبى، وتستشهد بالأمثال العامية، وتتبرك بالأولياء والقديسين. ويكتب المسرحيون «الناس اللى فوق» و«الناس اللى تحت». ولو بنى الحبيب قصرًا فإنه يبنى قصرًا فى «الأعالى». وإذا سكن الشريف بيتًا فإنه يسكن فى الأدوار العليا. وإذا طلب اليهود شيئًا فإنهم «يهبطون إلى مصر».

فى حين أن الدين لا يستبعد أى تصورات أخرى للعلاقة بين الطرفين. فقد تكون العلاقة أفقية لا رأسية، علاقة الإمام بالخلف. الأعلى هو الإمام، والأدنى هو الخلف. ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]. فالمقرب ليس هو الذى يصعد إلى أعلى بل الذى يتقدم إلى الأمام. ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧]. فالتقدم مرهون بالإرادة الإنسانية حتى تجوز المسئولية، وتحق المساءلة، ويطبق الاستحقاق. لذلك نقد القرآن الكريم الخوالف والقاعدين والمثبطين للهمم، المثاقلين إلى الأرض الذين رضوا بالحياة الدنيا، وآثروا الذل على الشهادة. والهجرة إلى الأمام، إلى أرض الله الواسعة، سياحة فى الأرض وليس هربًا إلى السماء كما يريد الصوفية أو تحت الأرض، كما فعل أهل الكهف قديمًا والحركات السرية حديثًا. والله أقرب إلينا من حبل الوريد. هو فى كل مكان ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]. الله هو الجامع بين الأعلى والأدنى وليس الأعلى وحده ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤]، ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]. وهو الذى يجمع فى صفاته أيضًا بين الأعلى والأدنى، فهو الرافع الخافض، المعز المذل، الباسط القابض. الله هو الجامع بين الأضداد وهو ما يستحيل على البشر فعله. والإنسان يسعى فى الأرض ويكد فيها ويكدح، ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]. والسير فى الأرض قدمًا ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

ويظهر هذا التصور الرأسى فى لحظات الضعف. عندما تتحول الحركة إلى سكون، والمقاومة إلى استسلام، وينسد الطريق، ويتوقف السير. فلا يبقى إلا الصعود إلى أعلى. فى غياب مد الخط المستقيم ينعرج إلى أعلى. فى حين أنه عندما يتراكم السيل وراء جبل عظيم فإنه لا يصعد إلى أعلى بل يلتف حوله أو يغمره فيصبح فى القاع. بدأ ذلك منذ الفتنة الكبرى، عندما انسدت كل الطرق، مقاومة الظلم والطغيان بالفعل عند الخوارج، واستشهاد أئمة آل البيت، والمقاومة بالحجة والبرهان علنًا كنوع من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما فعل المعتزلة. وتم عرض سياسة العصا والجزرة من الأمويين. ولم يبق أمام الشيعة إلا اللجوء إلى المعارضة السرية تحت الأرض، استعدادًا للخلاص فى المستقبل.

ثم تكلس هذا التصور الرأسى وتحجر. وتحول إلى عقيدة وتصور واتجاه. وانعزل عن مصدره التاريخى، وتحول إلى مقدس يوجه سلوك الناس، وعليه تقوم مناهج التربية. استعمله كل نظام تسلطى لتأييد نفسه اعتمادًا على الموروث الذى أصبح مقدسًا. وأخذه فقهاء السلطان للتبشير به فى أجهزة الإعلام. إن طاعة الأمير من طاعة الله، ومن بدل دينه أو خرج على الإمام استحق القتل. اتفقت عليه السلطتان السياسية والدينية ضد كل صنوف المعارضة التى تقوم على التصور الأفقى، مساواة الحاكم بالمحكوم فى الحقوق والواجبات، وحق المحكوم فى المراجعة والنقد للحاكم. فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

مهمة الثقافة العربية هى تفكيك هذا التصور المتكلس، وتحويله من ميدان المقدس إلى أصله الدنيوى، وإرجاعه إلى مصادره التاريخية. ثم إحلال تراث آخر أفقى للعالم

مكانه، واستدعاؤه من الذاكرة التاريخية، ومن هوامش الكتب إلى متونها. ومن زعم الزاعمين إلى مقالات المصلين. وهو تصور يلبى حاجة العصر إلى المساواة بين الحاكم والمحكوم، وتذويب الفوارق بين الأغنياء والفقراء، وتقريب المسافة بين الإمام والمأمومين، ومساواة أمينة وكمال وعائشة وخديجة لسى السيد فى ثلاثية نجيب محفوظ «كلكم لآدم، وآدم من تراب» و«الناس سواسية كأسنان المشط».

والسؤال الآن: هل المقاومة ميئوس منها؟ هل انسداد الطريق وصل إلى حد لا يمكن عبوره ويتطلب الطيران فوقه؟ هل الصعود إلى أعلى خير من التقدم إلى الأمام؟ إن نجاح المقاومة اللبنانية فى الجنوب وانتصارها على جيش الاحتلال الصهيونى، والمقاومة الفلسطينية فى الأراضى المحتلة، ومقاطعة الشعوب العربية لجميع أشكال التعاون مع الكيان الصهيونى يشير إلى أن الطريق لم يعد مسدودًا، وأن استجداء الحل من الولايات المتحدة أو من أوروبا هو استمرار فى اللجوء إلى أعلى كى يمارس الضغط على الكيان الصهيونى. وهو أيضًا أعلى يرفض الضغوط عليه.

إن تاريخ العرب الحديث يبين أن الطريق لم يعد مسدودًا كى يلجأ العرب إلى أعلى كما لجأ الصوفية من قبل بعد استشهاد آل البيت فى مقاومة الظلم والطغيان. لقد استطاعت حركات التحرر الوطنى فى عقدين من الزمان القضاء على استعمار دام أكثر من قرنين. وهو إنجاز ضخم يعطى الثقة بالنفس، ويدفع إلى استمرارها لمقاومة أشكال الهيمنة الأخرى ومنها: العولمة، والعالم قرية واحدة، وثورة الاتصالات، ونهاية التاريخ. واستقلت الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى. وتم الحفاظ على الجمهوريات الإسلامية فى أوروبا الشرقية بالرغم من سياسة التطهير العرقى الذى مارسه الصرب. وراح ضحيته آلاف الأبرياء من المسلمين. وأصبح الإسلام الدين الثانى فى أوروبا وأمريكا، والأول فى أفريقيا وآسيا. وقامت الثورة الإسلامية فى إيران لتعطى نموذجًا جديدًا للثورات العالمية بعد الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية والثورة البولشفية. وتتعدد مظاهر الصحوة الإسلامية فى كل مكان حتى أصبح الإسلام يكوّن قطبًا ثانيًا محتملاً أمام القطب الأوحد. لذلك تشتد الهجمة على الإسلام والمسلمين حاليًا تحت ذريعة ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وربطه بالتخلف والعنف والإرهاب والمعاداة للمدنية ولحقوق الإنسان، مع أنه هو الذى أقام المدنية قبل العصور الحديثة فى الغرب. وهو الذى أعلن حقوق الشعوب فى حق تقرير المصير.

٢- التصور الهرمى للعالم وجذور البيروقراطية (*)

وقد يتجزأ التصور الرأسى للعالم ويتفصل ويتعين أكثر وأكثر، ويصبح التصور الهرمى للعالم عندما يتراكم الإحساس بأن الوصول إلى قمة دفعة واحدة يحتاج إلى مراحل تدريجية خطوة فخطوة كما يرتقى الإنسان السلم أو يهبط منه. فالوصول إلى أعلى صعب المنال. والعودة إلى العالم تحتاج إلى هبوط تدريجى. ومن هنا نشأ التصور الهرمى للعالم ودلالته على الفكر. فللأشكال الهندسية دلالات فكرية، النقطة والبداية، والخط والأفقى واللانهائية، والدائرة وقدم العالم، والمربع والتعادل أو التوازن، والمثلث والتصور الهرمى للعالم.

وتتحدد هذه العلاقة فى الوجود والمعرفة والقيم فى تصور العالم وفى كيفية معرفته وفى طرق السلوك فيه. ففى الوجود يدل هذا التصور على أن العلاقة بين الدرجة العليا والدرجات السفلى، بين القمة والقاعدة هى علاقة الواحد بالكثير. فلا يوجد إلا أمير أوحد، وآمر واحد، فى حين أن الناس والمأمورين كثيرون. وهى علاقة الكل بالجزء. فالكل واحد جامع مانع، مثل آدم أبى البشر. والماء أصل كل شىء حى، والخلية فى النسيج الحى، والنقطة فى الهندسة، والبروتون أو الذرة فى الطبيعة النووية، والله فى الدين، والإمام فى المجتمع، والرئيس فى الدولة. فى حين أن القاعدة تتكون من أجزاء متعددة متشابهة، متراصة متجاورة على التبادل: المأمورون، والرعايا، والبشر، والمخلوقات، والكائنات الحية، وذرات التراب.

وفى المعرفة تتدرج المعارف من الحس إلى العقل إلى القلب كما يقول الفلاسفة، ومن علم اليقين إلى حق اليقين إلى عين اليقين كما يقول الصوفية. فالمعارف ترقى من أدنى إلى أعلى فى سلم الحقائق، المعرفة الحسية للأجزاء بالعالم تخطئ وتصيب. ترى

(*) جريدة الاتحاد: ٩ مارس ٢٠٠٢م.

الحواس الشيء كبيراً إذا قرب، وصغيراً إذا بعد. وتنطبق السماء على الأرض فى الأفق. وتبدو الأرض مسطحة. والشمس تتحرك فى السماء. والقمر يصغر ويكبر، وقضيبا القطار ليسا متوازيين بل يلتقيان عن بعد. وإذا كانت اليد ساخنة تشعر بالشيء بارداً، وإذا كانت باردة تشعر بالشيء ساخنًا. ثم تتراكم المعارف الحسية وتصبح تجارب وحقائق علمية يمكن ملاحظتها والثقة بها.

ثم يأتى العقل فيصحح أخطاء الحس، ويعطى المعرفة البرهانية. فالرياضيات أكثر يقينًا من الحسيات والمجربات. والعلوم الاستدلالية أيقن برهانًا من العلوم التجريبية. فاتساق النتائج مع المقدمات فى العلوم الرياضية أكثر يقينًا من اتساق الأحكام التجريبية مع الواقع الحسى. لذلك كان النظر أول الواجبات عند القدماء، والعقل مناط التكليف، جمعًا بين الحس والعقل، بين المشاهدة والاستدلال.

ثم يأتى القلب أو الحدس أو المعرفة المباشرة من الداخل أو من الخارج بالنظرة أو بالإلهام، ويعطى نوعًا جديداً من المعرفة الصادقة حدسًا وإن كانت تطابق العقل والحس، نتيجة لتصفية القلب. لا تخطئ الحس ولا العقل ولكن تضع مراتب للمعرفة أدناها الحس، وأوسطها العقل، وأعلاها القلب. فالمعرفة الحقة صعود إلى أعلى، والمعرفة الظاهرة نزول إلى أسفل. وقد عبر الغزالى عن ذلك بصدق فى «المنقذ من الضلال» مبينًا فيه سيرته الذاتية ومنهجه المعرفى فى الارتقاء من أدنى إلى أعلى، صاعداً درجات السلم حتى اليقين المطلق.

وقد انعكس ذلك كله فى معرفتنا الاجتماعية عندما يزداد العلم عند الرئيس، ويقل عند المرءوس. فالرئيس وحده، قمة الهرم. هو الملهم والعارف والعالم، صاحب البصيرة والحدس. يصحح أخطاء المرءوسين، ويعطى توجيهاته فى كل شيء. وكذلك الحال فى علاقة المدير بالموظفين.

وفى القيم، تتدرج القيم بين الأعلى والأدنى. والقيم النظرية أعلى من القيم العملية. من يعمل بفكره أفضل ممن يعمل بيده. والمدير أعلى قيمة من العامل. والياقات البيضاء أرفع من الياقات الزرقاء بتعبير الاجتماعيين المحدثين. هكذا تصور الفلاسفة قديمًا علاقة الفضائل بعضها ببعض، ربما تحت أثر اليونان، وقراءة القرآن من خلال اليونان، مما دفع الفقهاء المتأخرين إلى كتابة «ترجيح أساليب القرآن على منطق

اليونان»، فى المنطق وليس فى الأخلاق. فقد قسم أفلاطون قوى النفس إلى ثلاثة أقسام: القوة الشهوية، وفضيلتها العفة، والقوة الغضبية وفضيلتها الشجاعة، والقوة العاقلة وفضيلتها الحكمة، فإذا ما تحققت هذه الفضائل الثلاث نشأت فضيلة رابعة هى العدالة، أعلاها الحكمة وأوسطها الشجاعة، وأدناها العفة. وقد انعكس هذا التدرج القيمى فى الطبقات الاجتماعية، فأصبح الفلاسفة والحكماء هم الطبقة العليا، والجنود والضباط الطبقة المتوسطة، والعمال والفلاحون الطبقة الدنيا. وهو نظام طبيعى كونى أبدى لا يمكن تغييره. فلا الفيلسوف قادر على أن يعمل بيده، ولا العامل قادر على العمل بعقله، ولا الجندى قادر على العمل بعقله أو فى الحقل والمصنع بل فقط يجاهد فى ميدان القتال. واستمر الأمر على ما هو الحال حتى الآن فى مجتمعاتنا العربية، مازال الأستاذ والمحامى والمهندس والطبيب والعالم أعلى قيمة من العامل والزارع والصانع والممرض. فالمهن النظرية أكمل من الحرف العملية. والجامعات أفضل من المعاهد الفنية، عليا أو متوسطة. ويتضح ذلك فى شروط القبول ومجموع الدرجات، والمرتبات، والوجاهة الاجتماعية. واليد البيضاء أفضل من اليد السوداء. وهذا كله مناقض لقيم الإسلام التى تجعل جامع الحطب، والعمل اليدوى أفضل من المتصوف والمتأمل والعامل. اليد السوداء يحبها الله ورسوله لأنها تعمل وتنتج. والعامل الذى يكتسب قوته بعرقه ويطعم العابد أفضل من العابد نفسه. فالعمل عبادة ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التوبة: ١٠٥]. وبالرغم من تغير الظروف الاجتماعية، واتساع رزق العامل، الميكانيكى، والمبلط، وعامل القيشانى، والحلاق، فإنه فى مرتبة اجتماعية أقل من المهندس أو الطبيب أو المحامى حتى ولو كان أقل رزقًا أو كان عاطلاً.

وكما يمكن التحول من البعد الرأسى إلى البعد الأفقى، كذلك يمكن التحول من التصور الهرمى للعالم إلى التصور المتساوى للعالم. فكل المهن على نفس المستوى من القيمة، لافضل لمهنة على أخرى إلا بالإتقان وحسن الأداء. وكما أن الرسول شهيد على أن عباد الله إخوان، وأنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح، وأن الناس سواسية كأسنان المشط، فكذلك المهن التى تقوم على تقسيم العمل الاجتماعى وليس على القيمة. فالإنسان لا يستطيع أن يقوم بجميع الأعمال. ويحتاج المجتمع إلى متخصصين وعمال مهرة فى شتى قطاعات العمل الاجتماعى. لذلك لزم

التخصص، دون أن يكون لتخصص فضل على تخصص آخر. المجتمع آلة واحدة تتحرك بمجموعة من التروس. إذا نقصها ترس واحد توقفت عن العمل. فكل أجزاء الآلة على مستوى القيمة من حيث الوظيفة، لا فرق بين رئيس دولة وقائد جيش، ورئيس وزارة وكانس الطريق وجامع القمامة ومنظف المجارى ومسلك البالوعات. فلو لم يتم كنس الطرق وجمع القمامة وتنظيف المجارى وتسليك البالوعات لقضى الرئيس نحبه والقائد والمدير من الأمراض والجراثيم. إن مجتمعاتنا لا تعانى فقط من الفرعونية وشتى صنوف التسلط والقهر السياسى بل أيضًا من القهر المهنى والتسلط الاجتماعى والبيروقراطية التى تقضى على المصالح العامة. فيلجأ المواطن للرشوة القادرة على اختراق هذا التراتب الهرمى للإدارة حتى يستطيع تحقيق مصالحه مباشرة. وما تحققه الرشوة ويقوم به الفساد تستطيع أن تحققه إعادة بناء الثقافة الموروثة بالتحول من التصور الهرمى للعالم إلى التصور المتساوى، لا فرق بين رئيس ومرءوس، ومدير وموظف. كانت الدرجات المالية للموظفين سابقًا عشر درجات ثم قلت بعد الثورة المصرية إلى ست درجات. ومازالت الثورة الثقافية قادرة على أن تجعلها أقل من ذلك. لا يعنى تقسيم العمل تقسيمه طوليًا بل عرضيًا، أو رأسيًا بل أفقيًا. وقديمًا كان الفارس العربى يغرس رمحه فى بساط كسرى وهو قادم على عرشه منتصرًا. وكان الطفل يتفوه بالحق أمام الشيخ المتملق المنافق. فالساكت عن الحق شيطان أخرس.

وإن كان لابد من تراتب ودرجات، فهى مراحل التاريخ التى تقسم الأمم وتطور الشعوب إلى مراحل تبين مدى تقدمها أو تخلفها. لذلك برز مفهوم «التقدم» فى الفكر العربى الحديث ليضع الأمة فى التاريخ. وتترجم أمهات الأعمال فى الوافد الغربى عن سر تقدم الأمم. فمازال الغرب يزهو علينا بأنه أعطى البشرية مفهومين: الإنسان والتاريخ. بينما يغرق الشرق فى الألوهية والأبدية. لذلك ازدهرت الإلهيات عندنا على حساب الإنسانيات. وإذا أبدعنا فلسفة للتاريخ تكون إما انهيارًا من الخلافة إلى الملك العضود أو من البدو إلى الحضر وإما صعودًا إذا ما ظهر المهدى فى آخر الزمان. ومازلنا فى حاجة إلى فلسفة فى التاريخ تجيب عن سؤال: فى أى مرحلة من التاريخ نحن نعيش؟

إن التصور الهرمى للعالم قد يفيد فقط فى ثقافة أحادية، تضع المستويات كلها فى مستوى واحد، يخلط بين النفس والبدن، والمثال والواقع، والثابت والمتغير، والمطلق

والنسبى، كما هو الحال فى الثقافة الغربية التى خلطت بين المستويات. فى هذه الحالة يفيد الكشف عن مستويات الثقافة من الرد المادى الوضعى، رد المثال إلى الواقع، أو الرد الصورى التجريدى، رد الواقع إلى المثال، والتجريبى إلى الصورى من أجل المحافظة على المستويات. موروثنا الثقافى الذى يقوم على التصور الهرمى للعالم قد يفيد الثقافة الغربية المعاصرة. والثقافة الغربية المعاصرة التى تقوم على التصور المتساوى قد تفيد ثقافتنا الموروثة. كل ثقافة لديها ما تحتاج لدى الثقافة الأخرى لأن الثقافتين تعيشان فى لحظتين تاريخيتين مختلفتين، نحن فى مرحلة ما قبل الحداثة، والغرب فى مرحلة ما بعد الحداثة.

* * *

obeikan.com

٣- التصور الثنائى للعالم وجذور الكبت (*)

إذا كان التصور الرأسى للعالم قد يؤدى إلى التسلط، وكان التصور الهرمى للعالم قد يؤدى إلى القهر، فإن التصور الثنائى للعالم قد يؤدى إلى الكبت. وهو التصور الذى يقوم على ثنائية متعارضة، الحق والباطل، والخطأ والصواب فى المعرفة. والفضيلة والرذيلة، والحسن والقبح، والبراءة والخطيئة فى الأخلاق. والرجل والمرأة، والشيخ والمريد، والغنى والفقير، والقوى والضعيف، والظالم والمظلوم، والحاكم والمحكوم، والآمر والمأمور، والأعلى والأدنى فى المجتمع.

والعلاقة بين الطرفين علاقة تعارض وتناقض وتنافر وتدافع بل وتحارب واقتتال، طرف حق مطلق، وطرف آخر باطل مطلق، ولا علاقة بين الاثنين إلا بأن يقضى أحدهما على الآخر. فلا تعايش بينهما ولا وفاق. ينتصر الحق بالضرورة على الباطل، والصواب على الخطإ، والأعلى على الأدنى، والفضيلة على الرذيلة، كما هو الحال فى الدراما الشعبية. وهو ما ظهر فى «معالم فى الطريق» عند سيد قطب، الصراع بين الإيمان والكفر، والإسلام والجاهلية، والله والطاغوت. ومن ثم يغيب الحوار بين الطرفين، ويحضر الصراع. ولا بقاء لأحدهما إلا بفناء الآخر.

وهى بقايا ثنائية شرقية قديمة، موروثة من ديانات فارس، الصراع بين «أهريمان» و«أرمزدا»، والنور والظلمة، والملاك والشيطان، ولا نصر لأحدهما على الآخر. إنما هو صراع أبدى. وتسرب هذا التصور إلى باقى الأديان. فقامت على الصراع وليس على الوئام، وعلى التناقض وليس على التآلف. بل وتسرب إلى ديانات التوحيد مثل الإسلام الذى يقوم على التناغم والتآلف والاعتدال والوسطية. وفى أوقات الأزمات والهزائم يضيع التعادل، ويسود التطرف، وتتحول الحياة إلى صراع بين أضداد.

(*) جريدة الاتحاد: ١٦ مارس ٢٠٠٢م.

وينقلب التوحيد إلى ثنائية، والانسجام إلى تضاد باسم الحياة الروحية، وانتصار الروح على البدن، والآخرة على الدنيا، ويشرع ذلك النص ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠]. ثم تنتقل هذه الثنائية المتعارضة إلى الحياة العامة، ابتداء من الفرد ثم الأسرة ثم المجتمع. فيقسم الفرد حياته إلى قسمين متعارضين، الفضيلة والرذيلة، الشرف واللذة، العقل والحس، الإرادة والرغبة، الحكمة والميول، الحب والجنس، العاطفة والجسد.

ثم تمتد الثنائية إلى الأسرة بين الأب والأم، والزوج والزوجة، والابن والبنت، والأخ الأكبر والأخ الأصغر، والأخت الكبرى والأخت الصغرى. وهى أسرة «سى السيد» التى صورها نجيب محفوظ فى «الثلاثية»، سى السيد وأمينة، سى السيد وكمال وياسين. ثم يفسر الدين طبقًا لذلك باسم القوامة ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]، والدرجة التى للرجال على النساء ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ابتسارًا للآيات، وأخذها إلى منتصفها دون ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] و﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١] و﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، «النساء شقائق الرجال».

ثم تمتد إلى المجتمع العريض بين طبقتين: الأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، ورجال الأعمال والعمال، وأصحاب رءوس الأموال وصغار التجار، وتجار الجملة وتجار القطاعى، والشرفاء والحقراء، وأصحاب الأرض والفلاحين، وأصحاب المصانع والعمال، والمقاولون وعمال التراحيل، والقواد والجنود، والمشايخ والمريدون، والعلماء والجهلاء. وينشأ الصراع الطبقى دون أن يكون بالضرورة صراعًا بين الطبقات التى تمثل المصالح بل بين طبقتين تعبيرًا عن التصور الثنائى للعالم.

ثم تمتد إلى العلاقات بين المجتمعات. فتنقسم إلى دار الإيمان ودار الكفر، دار الإسلام ودار الحرب، ودار العهد والأمان، ودار العدوان والطغيان. فتقع الحرب بين الشعوب بإعلان أو بغير إعلان، بمواجهة أو بمكيدة، والحرب خدعة. وكما انتهى الاعتدال فى حياة الفرد، والتعاون فى الأسرة، والوئام فى المجتمع ينتهى السلام بين الشعوب ضد ما أوصى به الدين ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا

﴿وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وتنتهى الحياة الثنائية عادة إلى الوقوع فى نوع من الازدواجية لإشباع الطرفين، حياة الدنيا، وحياة الآخرة بدعوى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأعراف: ٣٢] و﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]. وكلما زاد الإيمان زاد الإشباع. فالله يحب أن يرى نعمته على عبده. فيبنى العمارات الفارهة وربما بالرشوة للمصالح الحكومية، وبالغش فى الأسمنت وحديد التسليح، و«خلو الرجل» أو بيع «الشقة» مرتين ثم يخصص الطابق الأرضى أو ما تحت الأرض مسجداً للإعفاء من العوائد ولدرء الحسد ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]. ويصوم بالنهار وينهم بالليل. وينعم بليالى رمضان ويعتكف فى العشر الأواخر منه. ويتزوج مثنى وثلاث ورباع، ويعدل بينهن تطبيقًا لأحكام الشرع. ويطلقهن بالدور لتجديد الأربع مع أن أبغض الحلال عند الله الطلاق. ويحج إلى بيت الله الحرام، ويتاجر فى تأشيرات الحج. ويتزوج الشيخ المسن البنت الصغيرة. كفيل يكفلها بالمال، ويعين أسرتها الفقيرة. ويجمع الثروات، ويتهرب من الضرائب. ويتصدق على المحتاجين، ويؤدى الزكاة ٢,٥٪. وهى نسبة أقل من الضرائب الواجبة. ويبنى المساجد، ويلحق بها دور المناسبات والعيادات الطبية. ويسميها باسمه تخليداً لذكراه الطيبة على كل لسان. ويشارك فى ليالى الطرق الصوفية، والمناسبات الدينية، وموالد أولياء الله الصالحين. ويقيم موائد رمضان بما لذ وطاب من الطعام حتى ولو جمع المال من الكسب الحرام، وكدست النقوط من الرقص الشرقى. ويتناول السحور على حمام السباحة وأنغام الرقص الشرقى، وينوى الصيام. ويأخذ ألقاب الحاج والزاهد والمؤمن، والزبيبة فى الجبهة واضحة للعيان. ويبتهل ويسبل العينين. ويدعو فى كل خطوة. ولكل حركة ومكان، وسفر وحضر، ومنزل وشارع، وصفقة بيع وشراء، دعاء.

وكما يؤدى التصور الثنائى للعالم إلى الازدواجية قد يؤدى أيضًا إلى النفاق. يعيش الإنسان فى المستوى الأدنى ويدعى ويتظاهر أنه يعيش فى المستوى الأعلى. فالازدواجية قد تكون صادقة، ويعيش الإنسان المستويين معًا بنفس الصدق، جمعًا بين الدنيا والآخرة، وأخذًا بالحسنيين: حظ الدنيا وثواب الآخرة. أما النفاق فإنه يعنى أن يعيش الإنسان فى المستوى الأدنى بصدق، وبادعاء وتظاهر وكذب فى المستوى

الأعلى، كالتصدق رياء للناس. لذلك نقد القرآن النفاق والمنافقين، وسلوك الأعراب، والذين يقولون ما لا يفعلون. وأعَدَّ النفاق أشد من الكفر. النفاق كفر مقنع، والكفر صريح.

وكرد فعل على النفاق يبدأ الزاهد فى العزوف عن الدنيا، والتوجه إلى الآخرة، وإيثار طرف على آخر، ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]. فالتصوف ترك الدنيا بما فيها كرد فعل على التكالب عليها. ولا يُعرف الله إلا ببدن عار وبطن جائع. ويجد فى ملكوت الروح عالمًا أوسع وأرحب وأصدق. والقرب من الله بعد عن العالم. والأنس بالله وحشة من البشر، والحب فى الله رد فعل على بغض البشر.

قد ينتهى التصور الثنائى للعالم إلى الازدواجية أو إلى الانحلال أو إلى الكبت. فى حين أن الطبيعة واحدة، والفطرة طبيعة أولى، والأشياء على البراءة الأصلية، والإنسان قادر على السلوك الصادق بطبيعته. إنما يأتيه النفاق والانحلال والكبت من المجتمع.

قد يفيد التصور الثنائى للعالم فى المقاومة، مقاومة المحتل والطغيان والقهر والتسلط. وهى مواجهة أفقية لا رأسية، فى الخارج وليست مع النفس، من أجل التحرر وليس من أجل القهر والكبت. ويقوم على توحيد قوى النفس أولا، المادية والمعنوية، من أجل مواجهة العدو الخارجى.

وهذا لا يمنع أنه فى ثقافة أخرى مثل الثقافة الغربية التى خلطت بين المستويات أن تجد فى هذه الثنائية ما يحافظ على التمييز بين المثالى والواقعى، بين النفسى والبدنى، بين العقلى والحسى بدلاً من الوقوع فى الرد المادى كالوضعية أو الرد الصورى كالمذاهب الرياضية. لذلك أتت معظم المذاهب المعاصرة ثنائية البنية لرفع الخلط بين المستويات: المادة والذاكرة، التطور الخالق، منبعًا للأخلاق والدين عند «برجسون»، وعلوم الوقائع وعلوم الماهيات عند «هوسرل» والظاهريات المعاصرة، والوجود والموجود عند «هيدجر». فبقدر ما نحتاج إلى التوحيد الأول يحتاج الغرب المعاصر إلى الثنائية من جديد.

* * *

٤- التصور الأحادى للعالم وجذور القهر(*)

إذا كان التصور الرأسى للعالم الذى يعطى القمة أكثر مما يعطى القاعدة أصلاً للتسلط، وكان التصور الهرمى للعالم الذى يقوم على التفاضل بين الأكمل والأنقص جذر البيروقراطية، وكان التصور الثنائى للعالم الذى يقوم على الصراع بين الأعلى والأدنى أحد مصادر الكبت النفسى والاجتماعى، فإن التصور الأحادى للعالم أحد جذور القهر. وهو التصور الذى يقوم على الرأى الواحد، والحزب الواحد، والرئيس الأوحد، والنظام الفريد، والفرقة الناجية، والمخلص القادم، والمهدى المنتظر، ومبعوث العناية الإلهية، والمصطفى من القدر الذى على موعد مع التاريخ. هو الوحيد الملهم والكامل وغيره يكتسب العلم ويحصله وينتقل من النقص إلى الكمال النسبى. هو كامل الأوصاف، الإنسان الكامل، الوطنى الغيور، الأخ الأكبر، المجاهد الأعظم، الرئيس المؤمن، صاحب العظمة، وصاحب الجلالة، والمهيب الركن، والشريف المنسّب. هو المفتاح السحرى الذى يحل كل شىء: الإسلام هو الحل، والإسلام هو البديل، وتطبيق الشريعة الإسلامية هو السبيل، والإيمان بالله هو الطريق. لا فرق فى ذلك بين أيديولوچية إسلامية أو قومية أو ماركسية أو ليبرالية. فالقومية العربية هى الطريق، والليبرالية هى البداية والنهاية. والماركسية أممية تضم كل شىء. هو التصور الذى يفرز المطلقات المعرفية والأخلاقية والإنسانية. يجعل كل الأشياء مرهونة بالعلة الأولى، والمحرك الأول. هو الأول والآخر، الظاهر والباطن، المعز المذل، الرافع الخافض، المحيى المميت، القابض الباسط، المبدئ المعيد، الضار النافع، المقدم المؤخر، المانع الوهاب، الغفار المنتقم. هو التصور الموروث من الأشعرية الذى يلغى الإرادة الإنسانية، ويجعل الأولوية للإرادة الإلهية، ضد التصور الاعتزالى الذى يقوم على حرية الاختيار والمسئولية والاستحقاق. هو التصور الذى أدى إلى التواكل الذى

(*) جريدة الاتحاد: ٢٣ مارس ٢٠٠٢م.

نقده الإصلاحيون دفاعًا عن المبادرة الإنسانية. وهو سوء فهم للأسماء الإلهية وسوء توظيف لها. فما يطلق على الله لا يطلق على الإنسان والزعيم والحزب والأب والمدير والقائد وصاحب العصمة وفرعون الذى له ملك مصر وهذه الأنهار التى تجرى من تحته. المقصود من الأسماء الإلهية نزع تطبيقها على البشر، وتحرير الوجدان الإنسانى من الخوف والطمع، والتزلف والتقرب للرؤساء.

وعادة ما ينشأ هذا التصور الأحادى للعالم من أجل تحرير الوجدان الإنسانى من عبودية البشر، إذ تعنى «لا إله إلا الله» رفض كل آلهة العصر المزيفة، المال والجاه والشهرة والقوة والسلطة والإعلام والوجاهة الاجتماعية والمحمدة والتكريم حتى يتساوى البشر جميعًا أمام مبدإ واحد، هو الله الواحد القهار. كان التصور الأحادى فى الأصل يعنى الرفض قبل القبول كما هو واضح فى الشهادة «لا إله» فى صيغة النفى ثم «إلا الله» فى صيغة القبول. يقوم الشعور بفعلين متتاليين، فعل النفى ثم فعل الإثبات. ثم تحول التصور الأحادى للعالم إلى قبول مطلق، وإثبات مطلق دون أن يقوم بوظيفته فى النفى والرفض، ودون أن يؤدى اجتماعيًا وسياسيًا إلى الغضب والتمرد والاحتجاج والثورة كما حدث لبلال بن رباح عندما أراد أهل مكة إجباره على الكفر، ووضعوا الحجر الثقيل المحمى على صدره لكتم أنفاسه، وهو يتأوه «أحد أحد». وهو ما عبر عنه القرآن فى محكم آياته: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. وهم الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم هدى.

وينشأ هذا التصور الأحادى للعالم فى لحظات الضعف الاجتماعى عندما تبلغ التعددية حدها الأقصى، وتصل إلى حد تكافؤ الأدلة، وتساوى الشىء ونقيضه، كما كان الحال فى القرن الرابع الهجرى. تعددت المذاهب الفقهية، والفرق الكلامية والمدارس الفلسفية، والطرق الصوفية حتى احتار الناس أين الصواب وأين الخطأ؟ أين الحق وأين الباطل؟ حرية فكرية إلى أقصى حد وتردد وحيرة أيضًا إلى أبعد مدى. وهنا ظهرت الحاجة إلى حديث «الفرقة الناجية» والذى ختم به الغزالى «الاقتصاد فى الاعتقاد» «فى ما يجب تكفيره من الفرق». فجعل الحق فى جانب والباطل فى غيره. والصواب فى عقيدة ومذهب ورأى، والخطأ فى العقائد والمذاهب والآراء المخالفة.

الأشعرية حق فى العقيدة. وكفّر الباطنية والمعتزلة والخوارج. والشافعية حق فى الفقه. وحاجج المالكية والحنفية والحنابلة. والتصوف هو الطريق إلى الله. وبين حدود الكلام والفلسفة والفقه. وكفّر الفلاسفة، وبين تهافتهم، واتهمهم بالقول بقدم العالم، وبإنكار معرفة الله بالجزيئات، وبالقول بالمعاد الروحانى. بل إنه شرع الحكم بالشوكة دون البيعة. فقضى على التعددية لصالح الأحادية. كان الصليبيون على الأبواب، والخلافة مفككة إلى أمصار ضعيفة فى المركز. فقرر تقوية بغداد عاصمة الخلافة، وتأييد نظام الملك، وتعيينه أستاذًا فى المدرسة النظامية للإعلان عن أنه «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة». ومنذ القرن الخامس الهجرى والعالم الإسلامى يئن تحت هذا الاختيار للغزالى الذى كانت له ظروفه الخاصة. وبعد هزيمة الصليبيين جاءت غزوات الشرق من التتار والمغول لتستدعى استمرار هذا الاختيار الأحادى. ثم أتى الاستعمار الأوروبى الحديث ليتطلب أيضًا نفس الاختيار. وبعد الانتصار على غزو التتار والمغول فى عين جالوت ومرج دابق، وبعد انتصار حركات التحرر الوطنى على الاستعمار الغربى الحديث استمر نفس الاختيار الأحادى لصالح النظم السياسية الحالية التى تطلب الطاعة باسم المصلحة العليا، مصلحة الدولة، «لا تسبوا الله فإن الله هو الدولة»، كما عبر نجيب محفوظ على لسان أحد أبطاله.

والحقيقة أن التعددية هى الأصل. وحق الاختلاف حق شرعى. فالكل راد والكل مردود عليه. التعددية قانون طبيعى، اختلاف الألسنة والألوان والليل والنهار واللغات والشعوب والقبائل والمشارب والمناهج، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. من أجل التعارف والإثراء المتبادل، ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]. العلم الإلهى وحده هو العلم الشامل الذى يدرك الحقائق من جميع وجوهها. أما العلم الإنسانى فهو رؤية، وجهة نظر، اقتراب وموقف. النص وحده حامل للعلم الإلهى ثابت. أما قراءاته وتأويلاته فهى متعددة بتعدد القراء والمفسرين والمؤولين طبقًا لظروف العصر، ومناهج التفسير، ومصالح الجماعات. فالأصل فى الأشياء التعددية بعد خلقها من أصل واحد، والوحدة هدف للمستقبل، وإمكانية تتحقق، وافتراض ضمنى حتى يمكن الحوار بين الاتجاهات المتعددة والآراء المتباينة. وبفضل التعددية الأولى حتى القرن الرابع الهجرى نشأت الحضارة الإسلامية، وازدهرت، ووصلت إلى عصرها الذهبى. وبعد التصور الأحادى للعالم الذى قام به

الغزالى بدأت الحضارة فى الانهيار . وأخذت كل العلوم صوراً نمطية . واجترت الذاكرة ما أبدعه العقل سلفًا . وبدأ التجميع فى عصر التدوين الثانى للموسوعات الكبرى ، حفاظًا على ما أبدعه القدماء . ومازال هذا التيار هو السائد فى التأليف بالرغم من حركات الإصلاح الدينى والنهضة العربية المعاصرة إثر صدمة الحداثة ، وبعد عصر الترجمة الثانى عن الغرب . ساد منهج النقل سواء من القدماء أو من المحدثين ، من الموروث القديم أو من الوافد الجديد . وعَدَّ كل باحث وعالم ومفكر أن الحق فى طرف واحد ، ابن رشد هو الحل ، الغزالى هو المنقذ ، الأشعرى هو طريق الخلاص ، الشاطبى هو الأمل . وقد يأتى الحل السحرى من الوافد الغربى فى القومية أو الليبرالية أو الماركسية من الأيديولوچيات السياسية أو حتى المذاهب الفلسفية العقلانية أو التجريبية أو البراجماتية أو الوجودية . ويأتى الخلاص أيضًا من المناهج الأحادية التى يستبعد بعضها البعض ، التاريخية والبنيوية ، التحليلية والتركيبية ، الجدلية أو الظاهراتية .

إن التوحيد اسم فعل ، وحد ، يوحد ، توحيداً . يدل على حركة ونشاط وفاعلية . أما الواحد فثبات وجمود وسكون وصورية . واختيار الإسلام هو التوحيد للدلالة على النشاط والفعل الإنسانى والغائية . رسالته فى الحياة هى التوحيد بين المثال والواقع ، بين الكلى والجزئى ، بين الوحى والواقع ، بين الإرادة الإلهية وقوانين التاريخ . ليس التوحيد مسئولاً عن التصور الأحادى للعالم بل المسئول هو القهر فى لحظة الضعف ، والثبات الذى يتوهم الحركة نقيضًا له ، والخلاص فى لحظة الشعور بالهلاك . وإذا كنا نعانى من أحادية التصور فالأولى العودة إلى التعددية كأصل للأشياء . فالخلاص فى الحوار بين الرأى والرأى الآخر ، فى النسبية بعيدًا عن ملاك الحقيقة المطلقة . وإذا كان الشافعى قديمًا فى عصر التعددية قد نبه أنه على صواب قد يحتمل الخطأ وأن الآخر على خطإ قد يحتمل الصواب ، فإن أهمية الحوار وعدم الاستبعاد والإقصاء تجعلنا أكثر تواضعًا وننبه على أننا على خطإ قد يكون صوابًا وأن الآخر على صواب قد يكون خطأ .

* * *

٥- من القمة إلى القاعدة(*)

حدث طلق كاذب فى تونس الشهر الماضى بتأجيل مؤتمر القمة، وبعد ولادة عسيرة فى هذا الشهر عُقد مؤتمر القمة العربى السادس عشر، والقلوب فى الحناجر خشية التفرق والتشتت والتشرذم وانفراط عقد الجامعة العربية بعد ما يناهز الستين عامًا من تأسيسها، وشهادة التحولات الكبرى فى التاريخ العربى منذ النكبة الأولى فى ١٩٤٨م حتى الثورات العربية التى توالت بعدها، وحركات التحرر الوطنى التى اشتد أزرها فى الخمسينيات والستينيات حتى النكبة الثانية فى ١٩٦٧م والحلم العربى فى أزهى لحظاته، ثم التحول الرئيسى بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م باتفاقيتى كامب دافيد ومعاهدة السلام فى ١٩٧٨/ ١٩٧٩م، ثم الثورة الإسلامية فى إيران بوصفها رد فعل على انقلاب الثورة العربية من داخلها وبنفس الرجال إلى ثورة مضادة، ثم الانتفاضة الأولى، انتفاضة الحجارة فى ١٩٨٧م، والانتفاضة الثانية، انتفاضة الأقصى فى ٢٠٠٠م، وتخللتها حرب الخليج الأولى ثم الثانية. ثم أتى العدوان الأمريكى على أفغانستان، والعراق، ثم احتلال كل فلسطين، ليصبح المصير العربى كله فى مهب الريح. والعرب يفاوضون على قضيتهم الرئيسية، فلسطين، فى أضعف لحظاتهم، والعدو الصهيونى الأمريكى فى أقوى لحظاته، ثم تصفى القضية باسم الصفقة.

بدأت اجتماعات مؤتمرات القمة فى أوائل الستينيات باقتراح من الزعيم جمال عبد الناصر لدعوة القادة العرب للوقوف جبهة واحدة ضد تحويل روافد مياه نهر الأردن. وكانت حركة التحرر العربى فى أوجها. كانت قضية فلسطين هى القضية المحورية منذ القمة الأولى حتى الأخيرة هذا الأسبوع. كانت اجتماع قادة. وكان القادة يعيشون حركة التحرر العربى بطريقة أو بأخرى. وكانت القومية العربية هى الإطار المرجعى الذى يحتكم إليه الجميع، وهى فى صراعها ضد الاستعمار والصهيونية،

(*) جريدة الاتحاد: ٢٩ مايو ٢٠٠٤م، جريدة الزمان: ٢٧ مايو ٢٠٠٤م.

وبصرف النظر عن الخلاف الداخلى حول الاشتراكية العربية والنظم الجمهورية. وكان من إنجازاتها الاعتراف بمنظمة التحرير الممثل الشرعى والوحيد للشعب الفلسطينى فى قمة الدار البيضاء. ثم انقطعت القمم بعد كامب دافيد واتفاقيات السلام. ثم عادت من جديد بعد أن شعر العرب أنه آن الأوان لمبادرة عربية، الأرض فى مقابل السلام، وقبول حل عادل للقضية الفلسطينية.

وفى اجتماع القمة الأخير تغير الحال. تضاربت الأطر المرجعية. فلم تعد القومية العربية إطارًا مرجعيًا موحدًا كما كان الحال فى الماضى. وتغلبت القطرية الصريحة: مصر أولا، الأردن أولا، الكويت أولا. وتنوعت الولاءات، وتضاربت الإرادات، وغابت الإرادة العربية الواحدة. فالبعض لا يريد للقمة أن تنعقد أصلاً. فلم يعد للعرب ما يجمعهم فى عصر العولمة. وكل قطر عربى هو جزء من العولمة الكبرى يذوب فيها متصورًا أنه يحصل على منافع منها، وبأن الصغار أصبحوا مثل الكبار، وأن بعض الأقطار العربية مدعوة على انفراد للحاق بمجموعة الثمانية. وأين العرب فى العراق بعد أن تحالف البعض منهم مع قوات التحالف محاربًا فى صفها فى حرب الخليج الثانية؟ وأين العرب فى أثناء العدوان الأمريكى الثانى عليه، وبعد انطلاق قوات التحالف من بعض الأقطار العربية، ووجود القيادة المركزية فى أحدها؟ وأين العرب والمقاومة الفلسطينية تذبح كل يوم منذ انتفاضة الحجارة الأولى فى عام ١٩٨٧م حتى انتفاضة السلاح الثانية فى عام ٢٠٠٠م؟ الملايين فى الشوارع فى عواصم الدول الأوروبية ومئات الألوف فى عاصمة الكيان الصهيونى تتحرك ضد العدوان الأمريكى على العراق والاحتلال الصهيونى لفلسطين إلا الشوارع العربية فى العواصم العربية باستثناء بضعة ألوف هنا وهناك تحيط بهم عشرات الألوف من الشرطة وقوات الأمن.

وغاب بعض القادة العرب إيثارًا للسلامة. فالعرب «جرب» كما هو الحال فى بعض الأمثال العامية. وما استوطن العرب فى أرض إلا أسرع إليها الخراب كما وصف ابن خلدون من قبل. وإن حضروا فبالتمثيل الأدنى وليس بالرؤساء والقادة. وإن حضر القادة تبدأ المحاور الثنائية أو الثلاثية أو تتكون الجبهات فى المشرق أو المغرب من أجل وراثة مصر. فقد آن الأوان كى ينزاح الدور المصرى القديم. فلم يعد العرب فى حاجة إلى نضال وطنى أو قومية عربية أو زعامة شقيقة كبرى. فالغرب مركز جديد للأطراف

العربية، كل طرف على حدة. والعولمة مطروحة للجميع، لكل قطر عربى على حدة، وبخاصة الأغنياء منهم. فما يجمع بين العرب والغرب والولايات المتحدة الأمريكية أكثر مما يجمع بين العرب والعرب. كان الزمان الماضى زمان الشرق والغرب والذى لعبت فيه مصر والعرب دور التوازن، والحياد الإيجابى، وعدم الانحياز. والآن هذا هو زمان الغرب وحده، وعلى العرب متفرقين أن يكونوا أطرافًا تابعة فيه. فهو نموذج الحداثة الأوحد. يحتاج إلى نفط العرب وأسواقهم وعمالتهم. كما يحتاج إليه العرب فيما يظنون أنه التحديث والتكنولوچيا، واستثمار رأس المال، والخروج من خيمة العرب إلى الفضاء الفسيح.

واتضح من مؤتمر القمة العربى الأخير أن المخاطَب لم يكن الشعب العربى بل الصديق الأمريكى. فهو الذى أوعز بالتأجيل الشهر الماضى دون سابق إنذار. وهو الذى فرض جدول أعماله المفروض علينا من الخارج: الإصلاح، المجتمع المدنى، حقوق الأقليات، حقوق الإنسان، حقوق المرأة، حقوق الشيخ، حقوق الطفل، حقوق البيئة. كل الحقوق إلا حقوق الشعوب، حق تقرير المصير، وحق المقاومة للشعب المحتل، وحق الفقراء فى ثروات الأغنياء، وحق الشعوب المستعمَرة فى ثروات الشعوب المستعمرة، وحق إعادة كتاب التاريخ بما يحقق أكبر قدر ممكن من احترام ثقافات الشعوب وحضاراتها، وحق الدفاع عن الهوية ضد الاغتراب فى الآخر، وحق الطرف فى أن يكون مركزًا فى عالم متعدد الأطراف، وحق الشعوب فى الوحدة والتجمعات الإقليمية التى تحميها من الذوبان فى المركز الأوحد، وحق الشعوب فى التعبير الحر عن نفسها بالقول والفعل، بالبيان والمظاهرة، وحقها فى المطالبة بالمعيار الوحيد الذى يطبقه الغرب على الجميع، وليس المعيار المزدوج مرة داخل الغرب، ونقيضه خارجه.

وعلى السطح ودون كشف الأعماق، الولاء لمن؟ كانت المبادرات فى الصياغات والعبارات والمصطلحات والألفاظ. وتحولت القضية من الدماء التى تسيل فى العراق وفلسطين إلى خلاف حول الألفاظ، قوات التحالف أم قوات العدوان؟ الوجود الأمريكى أم الاحتلال الأمريكى؟ الإصلاح أم التحديث؟ وتكررت البيانات دون وضع آليات للتنفيذ لأى منها حتى سئم العرب التكرار، والمواقف المعروفة مسبقًا والتى

لا تحتاج إلى عقد مؤتمرات قمة، ودون التحول من النظر إلى العمل، ومن القول إلى الفعل، بالرغم من حث القرآن على الفعل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣]، والدعوة إلى العمل ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٥]، والاقتداء بالأنبياء العاملين ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ [الزمر: ٣٩].

إن النظام العربى القطرى والإقليمى فى حاجة إلى إصلاح. فالنظام العربى القطرى محاصر بين المطرقة والسندان، بين مطرقة الخارج والتبعية له، وسندان الداخل وضغط الشعوب عليه. وكلما ازداد الضغط فى الداخل ازدادت التبعية للخارج. لقد طال فى الحكم أكثر مما ينبغى بالرغم من التغيرات الجذرية التى طرأت على الوطن العربى منذ أوائل الخمسينيات حتى نهاية الستينيات، ومن السبعينيات حتى التسعينيات. وتداول السلطة غير وارد فى ذهن الحاكم العربى كما فعل سوار الذهب فى السودان فى عام ١٩٨٦م، وكما فعل محمد محاضر فى ماليزيا فى العام الماضى. فهو لا يترك الحكم إلا بالموت أو الانقلاب. والأفضل للحاكم العربى التحالف مع الشعب حتى يستقر النظام.

والنظام العربى الإقليمى الممثل فى الجامعة العربية فى حاجة أيضًا إلى إصلاح. ليس شكليًا، تغيير بلد الأمين العام، بل جذريًا من حيث آليات التنفيذ دون المساس بالثوابت العربية: القومية العربية، والوحدة العربية، والأمن القومى العربى، والسوق العربية المشتركة، والمنظمات العربية. فمازالت الجامعة العربية بيت العرب بالرغم من رغبة البعض فى انفراط العقد، وتوجه كل قطر نحو قبلة أخرى يرضاها، ظانًا أنها تحقق مصالحه، ودون أن يعلم أنه بذلك يخرج عن مسار التاريخ العربى الحديث.

وطالما نادى المثقفون الوطنيون العرب بتحويل جامعة الدول العربية إلى جامعة الشعوب العربية كما تمثلها مؤسسات المجتمع المدنى العربى، وقواها السياسية، وحركاتها الشعبية. فالشعب العربى مازال نابضًا بالحياة، حريصا على مصيره، وقابضًا على مساره المستقل فى التاريخ، وقادرًا على الدفاع عن مصالحه ووحدته وأهدافه القومية. وهذا يتطلب عقد مؤتمرات القاعدة، وليس مؤتمرات القمة. فالقاعدة هى

حامل القمة. والقمة محمولة على القاعدة. وقد توجد قاعدة بلا قمة، ولكن لا توجد قمة بلا قاعدة.

ما يحتاج إليه العرب من حاكم عربى حالى أو قادم هو هزة رمح من عنترة، والانطلاق على صهوة جواد عربى أو صيحة المهلهل «اليوم خمر وغدًا أمر». ما يتوق إليه العرب هو ضربة سيف من خالد، أو رفع قامة من ناصر «ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعمار»، ضد التبعية للخارج، والقهر للداخل، أو شجاعة أحمس طارد الهكسوس، وعربة رمسيس. يرنو العرب إلى يقظة إخناتون، وهبوط الوحى على محمد. إذ لا يفلح العرب كما لاحظ ابن خلدون إلا بصبغة عصبية أو ولاية، وكما هو الحال فى الشعار القومى العربى الحديث: «العرب أمة واحدة ذات رسالة خالدة».

ما يحتاج إليه العرب هو انتفاضة الشعب العربى ومساندة للانتفاضة فى فلسطين والعراق ضد حالات الكبت والإحباط واليأس، والإحساس بالمهانة، والنيل من الكرامة، والغضب المكبوت. فالشعوب فى النهاية هى التى تحدد مسار التاريخ حتى وإن كان الزعيم هو الذى يجسد روح التاريخ.

قد تندلع انتفاضة وطنية فى كل قطر عربى دفاعًا عن الأوطان مثل المقاومة فى فلسطين والعراق أو المظاهرات داخل كل قطر للمطالبة بالحرية والدستور. فالحنين إلى الأوطان جزء من الحنين إلى الأصل، والعودة إلى الأرحام، وكما تعلم جيلنا «حب الوطن من الإيمان»، وكما ذرف الرسول دمعة حزن على مكة وهو يغادرها، ودمعة فرح وهو عائد إليها.

قد تندلع انتفاضة قومية ضد إذلال العرب، واحتلال أوطانهم، والنيل من كرامتهم، والطعن فى شرفهم. فمازال العربى يحن إلى ماضيه القريب، الناصرية بوصفها تجسيدًا للقومية. ومازالت صور عبد الناصر ترفع فى فلسطين كلما هُدمت المنازل، وجُرفت الأراضى، والمشردون يصيحون «واناصراه». مازال العرب يحنون إلى «أمجاد يا عرب أمجاد» و«من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر» و«الأرض بتتكلم عربى». وذكرى حرب أكتوبر، وحظر النفط على أعداء العرب مازالت حية، من أريج جيل مضى، يثير الخيال.

قد تندلع انتفاضة إسلامية. فجهاد وحماس يحملان العبء الأكبر فى المقاومة فى فلسطين. وقد خرجت حركات التحرر الوطنى منذ القرن الماضى من عباءة الإصلاح الدينى عند الأفغانى وعلال الفاسى وعبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمى، ومن السنوسية والمهدية وفدائيى إسلام وجماعة الإخوان.

إن العرب الآن على مفترق الطرق. ينهون مرحلة ويبدءون أخرى. فلا القديم انتهى كلية، ولا الجديد اكتمل فى الظهور. لقد تم تخصيب الأم العربية الثكلى من جديد. تشعر بآلام المخاض. والوليد قادم، ذكر أم أنثى، عمار أم سمية، صحيح أو مشوه، ولادة طبيعية أم بعملية قيصرية، فى تسعة أشهر أم فى تسع سنين؟ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١].

* * *

٦- فقهاء السلطان الأكبر(*)

تعود الناس منذ الثورات العربية الأخيرة فى نصف القرن الماضى على رؤية المفكرين والمثقفين والأدباء وأساتذة الجامعات من أهل الثقة وليس من أهل الخبرة من خلال أجهزة الإعلام والمؤسسات الثقافية يسوِّغون سياسات النظم القائمة، ويجدون عشرات الحجج على حسن اختيارها، اشتراكية قومية أو رأسمالية قطرية، ملكية وراثية أو جمهوريات رئاسية. فالاشتراكية حتمية فيما عُرف باسم حتمية الحل الاشتراكى. والقومية ماضى العرب وحاضرهم ومستقبلهم. والملكية رمز لوحدة التراب الوطنى وللشعب الواحد المتعدد الأعراق أو إرث للعائلة المالكة محققة الوحدة التى جاهد مؤسسها من أجل توحيد قبائلها وبناء دولتها الحديثة.

كما تعودت النظم السياسية أن تجد لها «موظفين» أيديولوچيين يقومون بهذه المهمة. بل ويتنافسون فيها، ويتسابقون عليها. وتطول قوائم الانتظار من جميع الفرق، قوميين وماركسيين وليبراليين وإسلاميين سابقين. فالأيديولوچية الآن هى أيديولوجية الدولة. والولاء ليس هو الولاء الأيديولوچى القديم بل الولاء للدولة. «لا تسبوا الله فإن الله هو الدولة» كما تقول إحدى شخصيات نجيب محفوظ فى إحدى رواياته تنويعًا على حديث «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر». كما أن هذا التسويغ هو الطريق إلى الوزارة، وربما إلى الإمارة. وهو طريق الثروة والسلطة، وسبيل الشهرة والصدارة. فإذا ما تغيرت خيارات النظم السياسية كما حدث بعد الثورات العربية الأخيرة أو بعد هزيمة يونيو- حزيران فى عام ١٩٦٧م أو بعد موت عبد الناصر فى عام ١٩٧٠م أو بعد حرب أكتوبر- تشرين عام ١٩٧٣م، تغيرت التسويغات أيضًا، وربما بالرجال أنفسهم. فالأولوية لاختيارات النظم، والتبعية للمفكرين والمنظرين والمفسرين والمجتهدين والأئمة والدعاة السياسيين. الزعيم هو الحصان، والموظفون الأيديولوچيون هم

(*) جريدة الاتحاد: ١٩ يونيو ٢٠٠٤م، جريدة الزمان: ١٧ يونيو ٢٠٠٤م.

العربة، متبوع وتابع. ومن يرفض هذا التصور فإنه من جرحى الثورة أو من الموتورين أو الإقطاعيين أو رجال العهد البائد أو من الخوارج والمتشددين أو ممن يعملون على قلب نظام الحكم، أعداء الثورة.

كان الزعيم هو الذى يحدد اختيارات النظام. وكان النظام هو الذى يحدد شكل الدولة. وكانت الدولة هى التى تقوم بتثقيف الشعب من خلال أجهزة الإعلام، ومؤسسات الثقافة، ومناهج التربية والتعليم. يوحى بأنه الزعيم الملهم الذى اختاره القدر لإنقاذ الشعب، وقيادة الأمة، وصنع التاريخ. وهو إما من صنع الوهم أو الإعلام أو أجهزة المخابرات الأجنبية والقوى الدولية. كان يعطى لنفسه الأسماء والألقاب، ويضع على صدره النياشين، ويلبس الرداء العسكرى الأشبه برداء النازية، أو يعطى لنفسه ألقابا تسعة وتسعين مثل أسماء الله الحسنى، أو يسمى دولته، وهى أصغر دولة، بالعظمى، أسوة ببريطانيا العظمى التى لا تعنى عظمة الإمبراطورية بل المنطقة الجغرافية تمييزا لها عن مقاطعة بريطانيا الصغرى فى شمال فرنسا. وآخر يجمع بين قريش والجيش، زعيم الأمة وقائد الجيش، إمام المسلمين الذى يجمع بين السلطتين الدينية والسياسية. وآخر ينتسب إلى أسرة الرسول، وكأن النبوة ملكية وراثية بالرغم مما يروى عن الرسول: «الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تتحول إلى ملك عضود».

ويؤسس حزبًا يصبح الحزب الحاكم، ويضع أيديولوچية النظام، ويحكم باسمه بعد انتخابات مزيفة يحصد فيها معظم مقاعد المجالس النيابية. يتمتع بأغلبية مطلقة تجعله يفعل ما يشاء. وبقدر ما ينعزل عنه الناس يمتد سلطانه. فهو الحزب الوحيد الذى يمثل الاختيار الأوحد. وقد تنشأ أحزاب معارضة أخرى من داخل السلطة استيفاء للشكل الديموقراطى، محاصرة فى مقار فى وسط المدينة بوصفها نوادى للمثقفين أو السياسيين لإصدار جريدة أو لإلقاء خطب فى المناسبات والأعياد الوطنية. ولا يسمح لها بتنظيم مظاهرة شعبية فى ميدان عام. وإن حدثت فداخل المقر حيث تتنصت عليه عربات الأمن بأجهزتها وربما بالصوت والصورة، من يقول ماذا؟ وربما استدرج بعض قادتها إلى أن يكونوا أعضاء فى المؤسسات الدستورية بالتعيين لتذوق طعم السلطة التى يتوقون إليها. ولا بأس من أن تصطدم مرة بالحزب الحاكم وأن تختلف معه تحت شعار «دعهم يتكلمون، ونحن نفعل ما نشاء». فقد تكون المعارضة النظرية إحدى وسائل

الحفاظ على أمن النظام فى الداخل تفريجًا عن هموم الناس، وفى الخارج تحقيقًا لمتطلبات النظام الدولى بقيادة القطب الأوحد، الولايات المتحدة الأمريكية، والذى يبغى التحول الديموقراطى من أجل ضمان نظام قادر على حماية العولمة، ينشّط القطاع الخاص، ويؤيد قطاع الأعمال، ويفتح البلاد لقوانين السوق، ويلغى الحواجز الجمركية، ويدخل عالم المنافسة وهو غير قادر عليه.

واليوم أصبحت الدولة نفسها تقوم بدور الموظف الأيديولوچى مسوِّغ النظام. فقد استكثرت الدولة عليه أن يقوم بهذه المهمة وحده. ونافسته فيه لأنها أقدر منه عليه. تريد كسبًا أعظم، هو استقرار النظام. كما يريد هو كسبًا أقل، المعية السلطانية. أصبحت الدولة الآن هى التى تقوم بدور المسوِّغ للنظام الدولى. فهذه مهمة تصعب على المثقفين والمنظرين فى الداخل. والدولة هى الحريصة على أن تنال الحظوة والرضا من نظام العالم القائم على القطب الواحد حتى تنال سنداً أعظم من الخارج إذا ما ضعف السند الداخلى من التسويغ السياسى المحلى. الدولة نفسها أصبحت فقيه السلطان الأكبر متجاوزة موظفها الأيديولوچى، فقيه السلطان الأصغر. الدولة أقوى من الفرد. والنظام السياسى أقدر من المنظّر المحلى. فإذا أراد نظام العالم الجديد الإصلاح، الشرق الأوسط الكبير، المتوسطية، فإن الدولة نفسها قادرة على أن تبين محاسن هذه المشروعات الجديدة بعد أن تخلت عن مشروعاتها القديمة، الوطنية والقومية والإسلامية والماركسية. بل إن الدول المعنية قد بدأت هذه المشروعات من قبل منذ زمن بعيد أو قريب، منذ فجر النهضة العربية، منذ مائتى عام أو منذ السنوات الأخيرة عندما وقع النظام السياسى العربى فى أزمة مزدوجة: القهر فى الداخل، والتبعية للخارج. إنما الفرق فرقان. الأول هو: كيف يتم الإصلاح؟ من الخارج أم من الداخل؟ بالقوى الذاتية أم بتدخل القوى الأجنبية، طوعًا أو كرهًا، بالجزرة أم بالعصا؟ والثانى: ما برنامج الإصلاح؟ إصلاح عام يعطى الأولوية للبرنامج الخارجى على البرنامج الداخلى؟ ويبدأ بمفردات الخارج واهتماماته: الإدارة العليا، المجتمع المدنى، حقوق الإنسان، حقوق المرأة، حقوق الأقليات، التحول الديموقراطى من أجل القضاء على العنف والإرهاب أم يبدأ بمفردات البرنامج الداخلى باسم الخصوصيات الثقافية التى تأبى الإجهاض، والشذوذ الجنسى، والذوبان فى هويات الآخرين، والاغتراب الثقافى والتبعية الحضارية؟ كان هذا هو السبب وراء تأجيل مؤتمر القمة فى تونس منذ

شهرين عندما فرضت أمريكا جدول أعمالها على القمة مهمشة جدول الأعمال العربى وفى مقدمته احتلال فلسطين والعراق.

أصبحت الدولة الآن هى التى تنادى بالتحديث والإصلاح بعد أن كانت هى المعاندة والرافضة، تمارس أبشع أنواع القهر ضد حركات الإصلاح بشتى فصائلها وانتماءاتها الأيديولوچية. كما أصبح النظام الدولى الآن بقيادة القطب الواحد، الولايات المتحدة الأمريكية، هو الذى ينادى بالإصلاح، وهو الذى مارس العدوان على الشعوب منذ موجات الاستعمار الأولى فى القرن التاسع عشر حتى موجات الاستعمار الثانية الآن باحتلال أفغانستان ثم العراق، وتهديد سوريا وليبيا وإيران والسودان واليمن، وتهميش مصر، والثناء على الخليج والمغرب العربى بوصفهما وريثين لمصر، وبديلين عنها. وفى الوقت نفسه الذى يُرفع فيه شعار الإصلاح يقبض فيه على المعارضة السياسية. فالقول والفعل عالمان مستقلان.

وكما تنافس الموظفون الأيديولوچيون على تسويغ النظم السياسية تتنافس الدول الآن على تسويغ وثائق الإصلاح، والشرق الأوسط الكبير، والمتوسطية، والتحول الديموقراطى، والتعددية السياسية. ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ [الواقعة: ١٠]، ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ [المدثر: ٣٧]. يتنافس الجناحان: الخليج والمغرب على القلب، مصر والسعودية وسوريا. ويذهب البعض فرادى إلى قمة الثمانية بچورچيا الأمريكية يقدم فروض الولاء والطاعة، وأنه على أتم استعداد لتنفيذ وثيقة الإصلاح للشرق الأوسط الكبير. هرولة نحو الولايات المتحدة الأمريكية لتنفيذ ما تريد بعد هرولة للصلح مع إسرائيل تنفيذا أيضا لمطالب سيد العالم الجديد. ولا يريدون الذهاب مجتمعين يمثلون مصالح العرب، وما تبقى من ذكريات الأمس القريب، الوحدة العربية، والقومية العربية، والجوار العربى، والنضال العربى، والتاريخ العربى، والثقافة العربية، والكرامة العربية. الكل يريد أن يتخلى عن الجامعة العربية، بيت العرب. فهناك الآن عدة جامعات أخرى بديلة، الإصلاح، الشرق الأوسط الكبير، المتوسطية، العولمة، السوق، العالم قرية واحدة، ثورة الاتصالات، الحداثة، التكنولوچيا إلى آخر هذه المفاتيح السحرية فى نظام العالم الجديد. وفى الوقت نفسه الذى يدعى فيه العرب أنهم حملة إرث تاريخى طويل ينسون تاريخهم القريب فى

الخمسينيات والستينيات عندما كان لهم حضور من المحيط إلى الخليج من خلال صوت عبد الناصر.

وتجد كل دولة مسوِّغاتها للقيام بهذا الدور، فقيه السلطان الأكبر. الشكر على المساعدة على تحرير أراضيها ضد العدوان عليها واحتلالها، التخلص من نظام معاد مجاور والرغبة فى لعب دور أكبر والسماح لقوات العدوان بالتمركز على أراضيها واستعمال موانيها ومياهها الإقليمية للقيادة المركزية والانطلاق منها، الخوف من عملية نقل جماعى للفلسطينيين إلى دولة مجاورة لإنشاء فلسطين فيها، الخوف من العدوان عليها بنفس الشبهات التى سوغت العدوان على العراق، الحفاظ على وحدة التراب الوطنى فى الشمال والجنوب والشرق والغرب، التسابق نحو نظام العالم الجديد بديلاً عن النظام العربى القديم بدعوى القرب الجغرافى والتآخى الثقافى واللغوى لتعاد سيرة الفرانكفونية والأنجلوفونية من جديد. والأعذار كثيرة لتخلى العرب عن عروبتهم، والاتجاه فرادى نحو نظام العالم الجديد مستعيدين قول ابن خلدون إنه ما حل العرب فى أرض إلا أسرع إليها الخراب.

ليس الطريق مسدودا أمام العرب. ومن ييأس من نفسه فلا أمل له فى الآخرين. فبدلاً من أن تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بدور الأفغانى والطهطاوى وشبلى شميل وغيرهم من رواد الإصلاح الحديث، الدينى والليبرالى والعلمى، فإن فقهاء السلطان الأكبر لديهم خيارات أخرى فى المقاومة الوطنية فى فلسطين والعراق وأفغانستان وكشمير والشيشان، وفى الدولة الوطنية المستقلة القادرة على التحالف مع الداخل والاستقلال عن الخارج كما فعلت ماليزيا والصين، وكما تحاول الآن تركيا بفضل حزب العدالة والتنمية، وإيران بعد الثورة الإسلامية وفى عهد الإصلاحيين.

فماذا يفعل الآن فقهاء السلطان الأصغر لتحديد رسالة جديدة لهم، الدفاع عن مصالح الأمة وحماية للشعوب من نظم القهر والطغيان؟ وماذا يفعل الآن فقهاء السلطان الأكبر للبقاء وفك الحصار عن أنفسهم وهم بين المطرقة والسندان، مطرقة الداخل، وسندان الخارج؟ وإن غداً لناظره قريب.

***

٧- لعب الأطفال على طريقة الكبار (*)

الأطفال مولعون بالتقليد. والتقليد لما يشاهدونه فى المجتمع من سلوك. ومن ثم تكشف لعب الأطفال عن مجموعة من السلوكيات الاجتماعية التى تعبر بدورها عن الأوضاع السياسية فى البلاد. والأطفال معروفون بالبراءة. هم المرآة العاكسة لما يحدث فى واقعهم، ولما يشاهدونه من أحداث، ولما يعايشونه من مواقف. لذلك هم من أهل الجنة. هم موضوع بحث علم نفس الطفل. وعادة ما يكون اللعب فى أوقات الفراغ آخر النهار بعد المدرسة أو فى عطلة نهاية الأسبوع أو فى عطلة الأعياد الدينية والوطنية أو فى عطلة الصيف. وبعض لعب الأطفال ذات دلالة اجتماعية وسياسية وثقافية.

يلعب الأطفال لعبة «شرطى المرور». إذ يقف أحدهما على الممر ويقطع الطريق على المارة ويسألهم: أين الرخصة؟ أين بطاقة الهوية؟ وينزعج المارة من هذا الطلب الكبير من هذا الطفل الصغير. والأطفال عن بعد، جالسون أو واقفون يضحكون. وهم يرون علامة الجد على صديقهم الشرطى المزيف وهو يحسن التمثيل مادًا يده، ومحركًا أصابعه نحو المشار إليه وعلى وجهه علامة الجد، وفى طلبه الرقابة على المواطنين المحتالين الذين يسيرون بالعربات من غير رخصة أو الذين لا تعرف لهم هوية، مواطن مثل كل المواطنين، يسعى فى أرض الله، ويأكل من خشاش الأرض. فشوق الطفل إلى أن يصبح شرطيًا. وهو رمز السلطة والجاه. والرقابة على الناس، وقطع طريق المارة. وهو المفتش فى القلوب والضمائر. فى قلب كل طفل، من المهد إلى اللحد، هناك شرطى. فالأب شرطى فى الأسرة، والمدرس شرطى فى العقل، والشيخ شرطى فى السلوك. والتعاليم واحدة، الواجب والعيب، الصواب والخطأ، الحلال والحرام. وفى جيل أقدم كان الأمل أن يكون ضابطًا، بل وضابطًا طيارًا حتى يقوم بألاعيب الهواء. وكان هو نموذج الحبيب الذى تقع الفتيات فى غرامه، بلباسه

(*) جريدة الاتحاد: ١١ سبتمبر ٢٠٠٤م، جريدة الزمان: ١٠ سبتمبر ٢٠٠٤م.

المزركش، وقبعته المذهبة، ووسامته وقامته، وبقدرته على الارتفاع. وكل فتاة تريد الارتفاع والانتقال من حضيض الأرض إلى أعالى السماء. وكان ضابط الجيش أعلى قيمة فى نظر جيلنا من ضابط الشرطة، والآن أصبح أمل الطفل أن يكون مجرد شرطى المرور أو «أمين شرطة». وفى الثقافة الشعبية هناك صراع خفى بين ضباط الشرطة وضباط الجيش، أى الفريقين أولى بالتبجيل والتعظيم والوجاهة الاجتماعية. ضابط الشرطة يدافع عن الأمن فى الداخل، وضابط الجيش يدافع عن الأمن فى الخارج. ومعظم الرؤساء ضباط جيش وقليل منهم ضباط شرطة.

ولعبة أخرى مقابلة وهى لعبة «عسكر وحرامية». إذ ينقسم الأطفال قسمين. الأول العسكر أو الشرطة أو «البوليس»، والثانى الحرامية أو اللصوص. وفى هذه الحالة الحرامية هم الأشجع والأذكى والأقوى والألطف والأظرف والأخف ظلاً. وأولاد البلد من العسكر الأجبن والأغبى والأضعف والأغلظ، والأكثر تجهمًا، والأثقل ظلا، والغرباء عن البلد مثل التركى وشنبه الغليظ القاسى القلب الذى لا يعرف الرحمة. وعادة ما تكون الغلبة للحرامية، والهزيمة للعسكر. فالنصر فى النهاية للشعب ضد النظام، والحق ضد الباطل، وللمواطن ضد الدولة، ولسرقة المحفظة ضد سرقة الدولة ونهب أموال الشعب. فمازال اللص هو اللص الشريف صاحب القيم الذى لا تستطيع الشرطة النيل منه. وقد خلّدت هذه اللعبة رواية «اللص والكلاب».

وفى جيلنا كانت هناك لعب أخرى تعبر عن نضال مصر الوطنى مثل «مصريين وإنجليز». كان الأطفال ينقسمون قسمين. الأول يمثل المصريين الوطنيين المناضلين، والثانى يمثل الإنجليز المعتدين المحتلين المغتالين للوطنيين. كان الفريق الأول أذكى وأشطر وأشجع وعلى حق. صاحب هدف ويعمل لقضية. بينما الثانى أغبى وأجبن وعلى باطل. استعمارى أجنبى يرمز إليه الخواجه «جون». والنصر باستمرار حليف القسم الأول الذى يستطيع بحركات الجسد وأساليب الفتوة قهر الجندى المدجج بالسلاح والذى يقف عاجزًا عن حرفية ابن البلد فى شل حركة الخصم دون أن يشعر وبسرعة غير متوقعة.

كان جيلنا أيضًا يلعب «أبويا ملك». وهى منافسة بين الأطفال على رفع الأثقال

أو قذف أشياء فى الهواء ثم تلقفها باليد ولا تقع على الأرض أو كسر عود قصب بضربة يد واحدة. ومن يكسب يكون أبوه ملكا. فقد كانت صورة الملك معلقة فوق الجدران دون أن نعلم أنه يملك البلاد طولاً وعرضًا. يقيل الحكومات، ويهب الدستور، ويتعاون مع الاحتلال، ويكوّن أحزابا لحسابه هى أحزاب السراى أحزاب الأقلية. ومع ذلك كان الملك ـ ونحن أطفال ـ هو الرمز. يُذكر فى النشيد الوطنى «للمليك اهتفوا، يا أسود الحمى». نهرع إليه مع المدرسة إلى قصر عابدين فى عيد ميلاده ١١ فبراير ونغنى:

لبيك مليكى لبيك حياك لسانى وجنانى
الغيث هما من كفيك وغدوت كتاب الأزمان
تاريخك آية عليا كتبت بيمين الرحمن

كانت أحلام الأطفال وقتئذ، صبيانا وبنات، تتلخص فى لعبة «عريس وعروسة». تعبر عن أشواق المستقبل. إذ يقوم طفل وطفلة بما لديهم من صغار الأشياء بتكوين شكلين على الأرض، غرفتين، كراسى وسرير، وعليه عريس وعروسة. وكلما كان المكان نظيفًا ملونًا جميلاً كان عش الزوجية سعيدًا. لم يكن هناك عيب أو فصل للبنات عن الصبيان منذ البداية، وتحجيب البنات. كان العريس يحب العروسة، والعروسة تبادله الحب دون أن يعرف الأطفال معنى الحب إلا الوجود معًا، والعطف المتبادل، والمكوث معًا طيلة النهار، وانتظار الصباح حتى يعاودا اللعب من جديد.

كان جيلنا أيضًا يلعب «الفتوات». إذ ينقسم الأطفال إلى فريقين. وكل فريق تحت زعامة الأقوى بوصفه الفتوة. ولكل فريق اسم حى: العطوف، باب الشعرية، الوايلى، الجمالية. وتدخل الأحياء فى نزاع بينها على الزعامة. ويتصارع الفريقان. ووسط كل فريق الزعيم. والمهزوم هو الذى يُطرح أرضًا، ويركب فوقه الزعيم الآخر، ولا يتركه إلا بعد أن يستسلم وسط تهليل الأطفال من الفريقين، ثم تنصيب المنتصر على الحيين معًا. فلا يوجد إلا فتوة واحد على كل الأحياء، وزعيم واحد على كل الزعماء. ولا فرق بين الدولة المعاصرة والحى الشعبى أو بين الحاكم والفتوة. زعيم واحد، وحزب واحد، وفكر واحد، ورب واحد. وقد خلّد نجيب محفوظ ذلك فى

«الحرافيش». لم يعد ابن البلد الآن قائمًا. واختفت الفتوة. ولم يعد الأطفال راغبين فيها. فإذا ما كبروا هاجروا من الأحياء بحثًا عن الرزق. فالمال هو القوة. راح الفتوة، وبقى الحرافيش. أصبح الفتوة خارج الأوطان تقوم بدوره الدول الكبرى مثل الولايات المتحدة أو الدول الصغرى مثل إسرائيل التى تلعب دور الدول الكبرى، والأنظمة العربية الحرافيش.

لا يلعب أطفال اليوم فلسطينيون وإسرائيليون أو أمريكيون وعراقيون كما كنا نلعب مصريون وإنجليز بالرغم من انتشار القنوات الفضائية، وذيوع الأخبار فى كل مكان داخل الأسر. لم يعد الأطفال يتحمسون للقضايا الوطنية. ولا قامت حركة مناصرة من أطفال مصر أو العرب إلى أطفال فلسطين والعراق. لم يعد الأطفال فى حاجة إلى نصر أو الدخول فى معركة. يسأل البعض منهم عن عبد الناصر من هو؟ هل كان وزيراً فى مصر؟ إلى هذا الحد بلغ النسيان لذاكرة التاريخ. معارك الأطفال شجار شخصى بلا سبب واضح. وعلى أقصى حد على تسجيل الأهداف فى كرة القدم. كان طفل يسير مشية عسكرية رافعًا عصا مقشة على كتفه وكأنه جندى مغوار. فسألته: ماذا تفعل؟ قال أحارب! قلت: تحارب من؟ قال أحارب العراق! قلت: وماذا فعلت العراق؟ قال إذن أحارب إيران! قلت ولماذا تحارب إيران؟ قال أمّال أحارب مين؟ قلت: تحارب إسرائيل. قال: قالوا فى المدرسة إننا عملنا معاها سلام! إلى هذا الحد بلغ تزييف الوعى القومى. الطفل يريد معركة. فالحياة بلا معارك تنتهى. والطفل لا يدرى أين هى الجبهة؟ يسمع عن الحرب بين العراق وإيران، ويريد أن يكون طرفًا فيها كما فعل العرب لحساب هذا الفريق أو ذاك أو لحساب الاثنين معًا. وغابت عنه المعركة الحقيقية للعرب فى فلسطين كما غابت عن الزعماء. وحلت محلها المعارك القطرية والطائفية والعرقية والعشائرية وتشتت الجهود. واختفى التناقض الرئيسى لصالح التناقضات الثانوية. والثقافة تقوم على التوحيد، توحيد القوى والجهود، والقبائل والشعوب، والأقطار والأمصار نحو غاية واحدة، عزة الأمة وكرامتها واستقلالها.

يلعب الأطفال أحيانًا الثابت فى الحياة الشعبية لعبة الجن والعفاريت، وشخصيات الغول وأبو رجل مسلوخة، وأبو طبق، والساحر، والشيطان. فالخرافة مستمرة، تفرز شخصياتها الشعبية. والعفريت أو الجن وغيرهما قادران على فعل المعجزات، والإتيان

بالعجائب، وإحضار الغائب، وإشباع الجائع، وتلبية مطالب المحتاج. يثير الخيال، ويبقى على الحلم خارج الواقع والمجتمع. ويقفز نحو المستقبل لحل قضايا الحاضر.

لم يلعب الأطفال حتى الآن لعبة الفلاح أو العامل أو التاجر وهذا بلغة الستينيات، جيلنا، لعبة تحالف قوى الشعب العامل. فقضايا الأرض والفلاح، وقضية العامل والمصنع، وقضية التاجر الصغير واحتكار سوق الجملة لم يعد يهتم بها أحد. لذلك لا يتحرك الفلاحون مهما سُلبت منهم الأرض، ولا يثور العمال إذا ما بيع المصنع. ولا يتكلم صغار التجار إذ لا يقوى أحد على منازلة الكبار. ولا يلعب الأطفال لعبة الشيخ والمعلم والتلميذ. بل إنهم حتى لا يسخرون منهم. فهم خارج دائرة الانتباه. لم تؤثر فيهم المدرسة. ولا يلعب الأطفال لعبة الزعيم الوطني: عرابي وسعد زغلول وعبد الناصر، يهيب بالأطفال الصغار على النهوض بهم وتحقيق الاستقلال بالرغم من تماثيلهم في الميادين وذكرهم في كتب التاريخ، ولكنهم ليسوا أحياء في وجدان الناس بل انزووا في دائرة النسيان.

إن لعب الأطفال ليس بلا دلالة بل هو كاشف عن شخصية الطفل وأوضاع المجتمع وحال الأمة. اللعب إثبات وجود مثل الفكر عند الفلاسفة.

يلعب الأطفال على طريقة الكبار. ويتغيرون بتغيرهم. والكبار ضحايا المرحلة التاريخية وأحد أسباب أزمتها. الأطفال نور كاشف لما يحدث في قاع المجتمع من خفافيش الظلام.

* * *